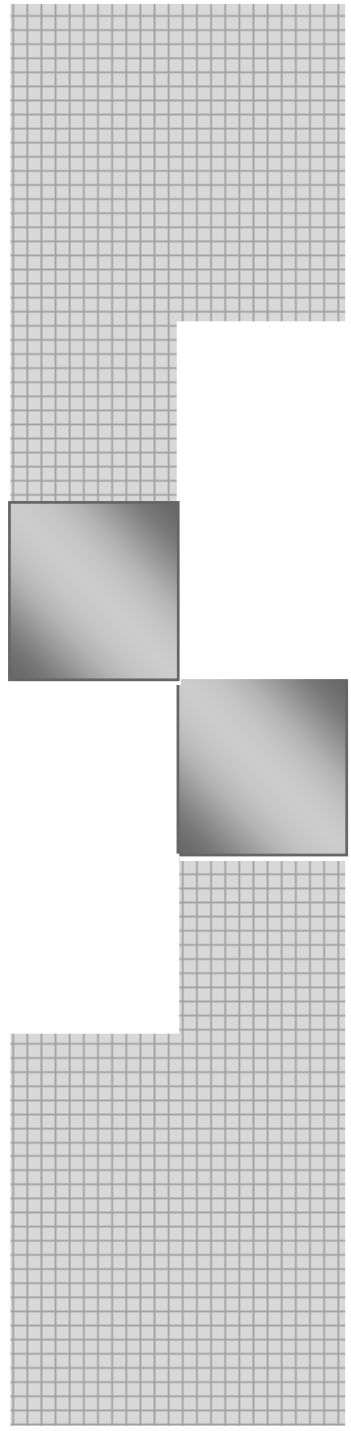

الفصل الثاني

علم البيـــــان

الفصل الثاني

علم البيـــان

البيان في اللغة: ما يبين به الشيء، من الدلالة وغيرها. وبانَ الشيء: اتَّضح فهو بينٌ واستَبان الشيء: ظَهَرَ. والبيانُ الفصاحَةُ واللُّسنُ، كَلامٌ بيِّنٌ فَصيحٌ. والبَيانُ الإفصَاح مَع ذَكَاء، والبَيِّنُ مِنَ الرِّجَالِ: الفصيحُ والسَّمحُ اللِّسان، وفلان أبينُ من فلان أي: أفصحُ مِنهُ وأوضَحُ كَلاماً، والبَيان: إظهار المقصود بأبلغِ لفظ، وهو من حسن الفهم وذكاء القلب مع اللُّسن، وأصله الكشف والظهور»[1].

البيان في الاصطلاح: فقد عرَّفه السكاكي بقوله: «هو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه والنقصان ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه»[2]، وبذلك أصبحت كلمة (البيان) عنوان علم له أصول وقواعد يمكن بواسطتها إبراز المعنى بصورة مختلفة بعضها أوضح من بعض، مع مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وقد عرف القزويني البيان فقال: «هو علم يعرف به إيراد المعنى الواحد بطريقة مختلفة في وضوح الدلالة عليه»[3]. وهذا التعريف هو ما استقر عليه البلاغيون، وفائدة علم البيان هي الاحتراز عن التعقيد المعنوي بصوره المختلفة أو فهم ما في الكلام العربي من المجاز والكناية والتشبيه والوقوف على أسرار

---

(١) لسان العرب، مادة (بين).

(٢) مفتاح العلوم، ص٧٧.

(٣) الإيضاح، ص٢٠١.

بلاغته والإتيان بما تشبهها في الأسلوب.

ولعلم البيان مكانة مرموقة في علم البلاغة يدل على ذلك قول الجرجاني: «إنَّك لا ترى علماً هو أرسخ أصلاً، وأسبق فرعاً، وأحلى جَنىً، وأعذب ورداً، وأكرم إنتاجاً، وأنور سراجاً، من علم البيان الذي لولاه لم تر لساناً يحوك الوشي، وهو يصوغ الحلي، ويلفظ الدّر»[1].

❑ علم البيان عند رشيد الخطيب:

تناول رشيد الخطيب علم البيان بالتحليل والدراسة فذكر التشبيه والحقيقة والمجاز بأنواعه المختلفة والاستعارة والكناية وسنوضح كل واحدة منها:

(١) دلائل الإعجاز، ص٤.

المبحث الأول

التشبيه

التشبيه لغةً: الشَبه والشَبيه المثل، أشبه الشيءَ، وأشبهت فلاناً وشابهته واشتبه علي، وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحِبه، والتشبيه: التمثيل[1].

التشبيه اصطلاحاً: هو عقد مشابهة بين شيئين اشتركا في صفة أو أكثر. قال الرماني: «التشبيه هو العقد على إنَّ أحد الشيئين يسد مسدّ الآخر في حسن أو عقل، ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول أو في النفس»[2]. وقال السكاكي: «إنَّ التشبيه مستدع طرفين مشبَّهاً ومشبَّهاً به، واشتركا فيهما من وجه وافترقا من آخر»[3].

وتأتي أهمية التشبيه البلاغية أنَّه يخرج الخفيَّ إلى الواضح ويجعل البعيد قريباً، وقد تناول رشيد الخطيب التشبيه الذي استعان به في إيضاح المعنى القرآني الموجود في التشبيه، ومن أهم صور التشبيه التي ذكرها في تفسيره.

١- التشبيه البليغ:

هو التشبيه الذي يحذف فيه وجه الشبه وأداة التشبيه، وسموا مثل هذا بليغاً لما فيه من اختصار من جهة وما فيه من تصور وتخيل من جهة أخرى؛ لأنَّ وجه الشبه إذا حذف ذهب الظن فيه كل مذهب وفتح باب التأويل، وفي ذلك ما يكسب التشبيه قوة وروعة وتأثيراً. قال المصري: «حد التشبيه

---

(١) لسان العرب، مادة (شبه).

(٢) النكت في إعجاز القرآن: ص٧٤.

(٣) مفتاح العلوم، ص١٥٧.

البليغ إخراج الأغمض إلى الأظهر بالتشبيه مع حسن التأليف»[1].

ومنه مما جاء في قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: من الآية ٢٢٣]، فالشيخ يذكر في هذه الآية التشبيه من دون بيان نوعه قائلاً: «عقد المشابهة بين الاستيلاد والاستنبات»[2]، وهذا التشبيه حذفت منه أداة الشبه ووجهه، فهو تشبيه بليغ؛ إذ يكون التقدير: نساؤكم كالحرث لكم، أي: كالزرع[3].

٢- التشبيه التمثيلي:

نستطيع أن نلمح (التشبيه التمثيلي) في عدد من التشبيهات التي وقف عندها الشيخ، وإن لم يكن قد أشار إليها صراحةً، ففي معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: من الآية ٢٤]، قال: «وخلاصة المثل، تشبيه سرعة تقضي متاع الحياة الدنيا، بسرعة تقضي رونق النبات الفتان الآخذ بمجامع قلب الإنسان، ولاسيما إذا أصابته آفة قبل الأوان»[4]. وقد ذكر علماء البيان أنَّ هذا من التشبيه المركب، يقال الزمخشري: «هذا من التشبيه المركب، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال، بحال بنات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعد ما

---

(١) تحرير التحبير: ١٠٤/٢، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ١٨٠/٢.

(٢) أولى ما قيل: ٢٠٧/١.

(٣) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن، ص٢٣٢.

(٤) أولى ما قيل: ١٩٢/٤.

التف وتكاثر»[1]، وهذا ما ذكره أغلب المفسرين[2].

منه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: من الآية ٣١]، قال رشيد: «يمثل الإيمان في علوه بالسماء، ويمثل الشرك والضلال بهذا السقوط والهلاك الرديء... ومحصل الكلام تشبيه لحال المشرك، بحال من يسقط من السماء، فلا يملك لنفسه أمراً، فإما أن يندق ويتفسخ، ويكون نصيب الطير، وإما أن ترمي به الريح في مكان بعيد عن غرضه الذي يرمي إليه، فضلاً عما في ذلك من المهاوي والمهالك، أي: إنَّ الذي يستبدل التوحيد بالشرك يسقط مثل هذا السقوط ويبعد كل البعد عن الحق وعن السعادة في الدارين وأسبابها الصحيحة»[3].

وقد ذكر الرازي كلام الزمخشري في تردد هذا التشبيه بين المفرق والمركب قائلاً: «قال صاحب (الكشاف) إن كان هذا تشبيهاً مركباً فكأنَّه قيل من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس وراءه هلاك، بأن صوَّر حاله بصورة حال من خَرَّ من السماء فاختطفته الطير فتفرقت أجزاؤه في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة، وإن كان تشبيهاً مفرقاً فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء والذي ترك الإيمان

---

(١) الكشاف: ٣٢٥/٢.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ١٣٧/٤، وأنوار التنزيل: ١٩٣/٣، والبحر المحيط: ١١٤/٥، ومدارك التنزيل: ١٢٥/٢، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٥٧٤/٣، وفتح القدير: ٦٣٣/٢، واللباب في علوم الكتاب: ٢٩٨/١٠، والتحرير والتنوير: ٥٩/١١.

(٣) أولى ما قيل: ١٣١/٦. وانظر مثال آخر في: ١٢٧/٥-١٢٨.

وأشرك بالله كالساقط من السماء والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذي يطرحه في وادي الضلالة بالريح التي تهوي بما عصفت به في بعض المهاوي المختلفة»[1].

٣- التشبيه الضمني:

وقال الحلبي والنويري: «هو أن يكون مقصوده التشبيه بشيء فدلَّ ظاهرُ لفظه أن مقصوده غيره»[2].

والتشبيه الضمني هو النوع الوحيد الذي سمّاهُ رشيد في تفسيره محللاً إياه ومبيناً الغرض منه، فعند وقوفه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، قال: «ثم شبه الغيبة تشبيهاً ضمنياً بأكل لحم الميت، مبالغة في التنفير منها والتقبيح لأمرها، وصاغ العبارة بصيغة الاستفهام التوبيخي التبشيعي للتنبيه على مكان الفعلة عن قبح هذه الخصلة وبشاعتها: «أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه». ثم أردف الإنكار بما لا نزاع عليه، وهو تقرير القبح، فقال: «فكرهتموه»، فأفاد أن كراهة مثل ذلك أمر مقر لدى النفوس، فيجب أن تكون فظاعة الغيبة الشبيه به أمراً مقطوعاً به أيضاً على طريقة قياس النظير. فقد نبه النفوس إلى ما لا تنكر قبحه وبشاعته، ثم قاس عليه ما لم تنبه له، لأنَّها قد استساغته وألفته بتأثير العادة والتكرار»[3].

و لم أجد من المفسرين من ذكر أن في الآية تشبيهاً ضمنياً.

---

(١) التفسير الكبير: ٢٩/٢٣، وينظر: الكشاف: ١٥٥/٣.

(٢) حسن التوسل، ص١١٨، ونهاية الأرب: ٤٤/٧، وينظر: شرح عقود الجمان، ص٩١، ومعجم المصطلحات البلاغية: ١٧٨/٢.

(٣) أولى ما قيل: ١٢٩/٨-١٣٠.

المبحث الثاني
الحقيقة والمجاز

❑ الحقيقة:

لغةً: حقّ الأمر بِحق: صار حقاً وثبت، وحق عليه القول وأحققته أنا، وحقّه وحققه. صدَّقه. وحقق الرجل إذا قال هذا الشيء هو الحق[1].

والحقيقة «فعيلة» بمعنى «مفعوله»، واشتقاقها من «حقق الشيء إذا أثبته، ولذلك فهي دلالة اللفظ على المعنى الموضوع له في أصل اللغة[2].

وأما **الحقيقة في الاصطلاح**: فقد جاءت تعريفات علماء البلاغة متعددة، فقد جاءت بألفاظ مختلفة ولكن لها وجه من المعنى، فالحقيقة: هي الكلمة المستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب[3].

وقد ذكر رشيد الخطيب الحقيقة في تفسيره أولى ما قيل، فقد نبَّه على احتمال الحقيقة والمجاز في تفسير طائفة من الآيات بقرينة عقلية، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، فقال: «وأما كلمة (وراء) فيحتمل أن تكون بمعناها الحقيقي. ويحتمل أن تكون مستعارة للقوة والتعقيب»[4].

---

(١) لسان العرب، مادة (حقق)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ١٥٣/٢.

(٢) معجم المصطلحات البلاغية: ١٥٣/٢.

(٣) الإيضاح، ص٢٥٠، وينظر: مواهب الفتاح: ٧/٤، وأسرار البلاغة، ص٣٥٥، ومفتاح العلوم، ص١٦٩-١٧٠، والطراز: ٤٧/١، والمثل السائر: ٥٨/١.

(٤) أولى ما قيل: ٢٨/٦.

ويتصل الحمل على المجاز والعدول عن الحقيقة في مواضع بوجهة الشيخ التأويلية وروحه النازعة إلى الإصلاح، وهو مع ذلك لا يرى مانعاً من الجمع بين الوجهين: الظاهر والحقيقي، والتأويلي والمجازي، وهي وجهة لغير واحد من البلاغيين كالرازي وغيره[1]، على نحو ما نجده عند وقوفه في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: من الآية ٥]، فقال: «أغلال التقليد الأعمى والضلال، وبمعنى مغلولون يوم القيامة بأغلال العذاب، أو المعنيان معاً جمعاً بين الحقيقة والمجاز. وذلك من خصائص اللغة وأساليب القرآن»[2].

❑ المجاز:

لغةً: جِزْتُ الطريق وجَازَ الموضِعُ جَوازاً، وجَازَ به وجَاوزَهُ وأجازَهُ غَيرَهُ وجَازهُ وَجَاوَزَهُ وأجازَ غَيرُه، وجَازَهُ، سَارَ فيهِ وَسَلَكَهُ وجَاوزتَ المُوضِعَ جَوَازاً بِمعنى جِزْتَهُ. والمَجازُ والمَجَازَةُ: المُوضِعُ[3].

وقال الجرجاني: «مصدر ميمي على وزن (مفعل) معناه الجواز والتعدية من جاز الشيء إذا تعداه»[4].

اصطلاحاً: عرفه الجرجاني بقوله: «وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز، وإن شئت قلت: كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها لملاحظة بين ما تجوز بها إليه وبين أصلها

---

(١) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن، ص٢٣٣.

(٢) أولى ما قيل: ٥٩/٥، وينظر أمثلة أخرى في ١٥/٥.

(٣) لسان العرب: مادة (جوز).

(٤) أسرار البلاغة، ص٣٠٠.

الذي وضع له في وضع واضعها، فهي مجاز»[1].

وعرفه السيوطي بقوله: «المجاز استعمال اللفظ فيما لم يوضع له»[2].

وقد أولى الشيخ رشيد المجازات في القرآن أهمية كبيرة، ووضع لها مكان في مقدمته بعنوان (المجازات في القرآن)[3] عدد فيها أنواع كثيرة من المجازات بجميع أنواعها.

ومن صور المجاز التي ذكرها رشيد في تفسيره:

أ – المجاز العقلي:

هو المجاز الذي يكون في الإسناد أو التركيب وقد سمي كذلك؛ لأنَّه متلقى من جهة الإسناد وهو المجاز العقلي[4].

والحقيقة أنَّ هذا النوع من المجاز تستعمل فيه المفردات استعمالها الأساسي وفي موضوعها الأصلي ويكون عن طريق الإسناد.

وسماه الجرجاني (المجاز الحكمي) واشترط له شرط الإسناد في (دلائل الإعجاز)[5]، في حين سماه (المجاز العقلي)[6] في أسرار البلاغة.

ويرجع الفضل في القول فيه، وفي فصله عن المجاز اللغوي إلى عبد القاهر الجرجاني، الذي عني به، وسماه مجازاً حكمياً، ومجازاً في الإثبات وإسناداً

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٦٣.

(٢) الإتقان: ١٠٧/٤، وشرح عقود الجمان، ص١٠٠.

(٣) ينظر: أولى ما قيل، ص١٩٤-٢٠٦ من المقدمة.

(٤) التبيان، ص١٠٦، والإتقان: ٣٦/٢، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ١٩٩/٣.

(٥) ينظر: دلائل الإعجاز، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٦) ينظر: أسرار البلاغة، ص٢٧٥.

مجازياً، ومجازاً عقلياً[1].

وقد عرّفه السكاكي قائلاً: «هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم لضرب من التأويل إفادة للخلاف لا بوساطة وضع كقولك: أنبت الربيع البقل»[2].

❑ المجاز العقلي عند رشيد الخطيب:

يصرح رشيد غالباً باسم المجاز العقلي محللاً ومعللاً، ومن المعروف أنَّ هناك علاقات للمجاز العقلي، ومن هذه العلاقات الواردة في تفسير أولى ما قيل هي:

١. الفاعلية:

وفيما يسند الوصف المبني للمفعول إلى الفاعل أي: يستعمل اسم المفعول مكان اسم الفاعل، ومن هذا النوع ما ذكره رشيد في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] فقال: «ومن مباحث اللفظ أن اسم المفعول هنا استعمل بدل صيغة اسم الفاعل، مبالغة في مدلوله. على طريق المجاز العقلي»[3].

وقال البقاعي: «حجاباً مستوراً» مالئاً لجميع ما بينك وبينهم مع كونه ساتراً لك عن أنْ يدركوك حقَّ الإدراك... وذلك أبلغ في العظمة وأعجب في نفوذ الكلمة ومستوراً بمعنى ساتر»[4].

---

(١) التعريفات، ص١٤١.

(٢) مفتاح العلوم، ص١٨٥.

(٣) أولى ما قيل: ١٧٦/٥.

(٤) نظم الدرر: ٣٨٧/٤.

وهذا التفسير قاله أكثر المفسرين[1].

٢- المفعولية:

هو ما بني للفاعل وأُسنِدَ إلى المفعول به الحقيقي، وقد ورد هذا الأسلوب في تفسير أولى ما قيل في مواضع متعددة، منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١]، قال رشيد: «أي: مرضية، فاستعمل اسم الفاعل موضع اسم المفعول، على طريقة المجاز العقلي وذلك من خصائص اللغة، للمبالغة في الوصف»[2].

وهذا ما ذكره القرطبي في تفسيره معتمداً رأي الفراء، راضية أي: مرضيَّة[3] وكذلك أبو حيان[4].

وقد ذكر رشيد الخطيب فائدة هذا المجاز العقلي وهو للمبالغة في الوصف[5]، وذكر البقاعي أن غرض المجاز العقلي البلاغي هو للمبالغة والتشويق[6]، وهذا ما

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: ٥٠٩/٣، والكشاف: ٤٥١/٢-٥٤٢، والجامع لأحكام القرآن: ٢٧١/١٠، وأنوار التنزيل: ٥٧٢/١، والتسهيل: ١٠٦/٢، والبحر المحيط: ٣٩/٦، والسراج المنير: ٢٤٢/٢.

(٢) أولى ما قيل: ٨٧/٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٤٩/١٨، وينظر: معاني القرآن: ٣٨٥/٣.

(٤) ينظر: البحر المحيط: ٣١٩/٨، والمحرر الوجيز: ٣٣٣/٥، والكشف والبيان: ٣٠/١٠، ولباب التأويل: ١٤٥/٧، والنكت والعيون: ٨٣/٦، وزاد المسير: ٣٩٣/٤، وروح المعاني: ٩٥/٢٢، والمزهر: ٩٣/٢.

(٥) أولى ما قيل: ٨٧/٩.

(٦) ينظر: نظم الدرر: ٣٦٣/٢٠.

لم نجده عند أغلب المفسرين[1] وهم لم يذكروا صراحة المجاز العقلي بل صرَّحوا بلفظ المجاز، أو الإسناد.

ومن هذه العلاقة أيضاً مما جاء في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: من الآية ١٠]، قال رشيد: «وتسميتها حافرة مع إنَّها محفورة مجاز عقلي من ذكر اسم الفاعل مكان اسم المفعول، مثل: حجرة مضيئة. فهي على حد قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: من الآية ٢١]»[2].

وقال الرازي: «يقال رجع فلان في حافرته أي: في طريقه التي جاء فيها فحفرها أي: أثر فيها بمشيه فيها أي: جعل أثر قدميه حفراً فهي في الحقيقة محفورة إلا أنَّها سميت حافرة كما قيل في عيشة راضية»[3].

وإلى هذا التفسير ذهب أكثر المفسرين[4].

وذكر رشيد هذا النوع في مواضع متعددة في تفسيره[5].

٣- المكانية:

وفيها يسند الفعل إلى المكان وهو في الحقيقة مبني للفاعل، كقوله تعالى:

---

(١) ينظر: الكشاف: ١٥٣/٤، والجامع لأحكام القرآن: ٢٤٩/١٨، والتسهيل: ١٤٣/٤، والبحر المحيط: ٣٢٥/٨، وأنوار التنزيل: ٥٢٢/٢.

(٢) أولى ما قيل: ١٤٨/٩.

(٣) التفسير الكبير: ٣٣/٣١.

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٩٧/٩، والمحرر الوجيز: ٤٤/٥، والتسهيل: ٢٨٧/٣، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٤٤٠/٦، وفتح القدير: ٥٢٧/٥، والجواهر الحسان: ٣٨٤/٤، والبحر المديد: ٣٤٦/٨.

(٥) ينظر: أولى ما قيل: ١٤٣/٩، ٢٤١/٩.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٥-٧٦]، قال رشيد: «وفي كلمة مقيم مجاز عقلي؛ لأنَّها في الحقيقة صفة لإطلال تلك القرى، بمعنى أنَّها باقية إلى الآن، ولكن وصل بها السبيل أي: الطريق كما يقال نهر جار فيوصف بصفة الماء فيه...والمراد من قوله وإنَّها لبسبيل مقيم، أنَّ إطلالها ظاهرة على هذا الطريق»[(١)].

٤- السببيَّة:

وفي هذه العلاقة المجازية يسند الفعل، أو ما في معناه إلى سببه، كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: من الآية ٣٦]، قال رشيد: «أي: ضلوا بأتباعها وعبادتهم لها، تقربهم إلى الله زلفى. وفي إسناد الإضلال إليها تجوز معروف مثله في خصائص اللغة ويسمى في عرف البلاغة الإسناد إلى السبب»[(٢)].

وقال البيضاوي: « فذلك سألت منك العصمة واستعذت بك من إضلالهن وإسناد الإضلال أليست باعتبار السببية»[(٣)].

وذكر البقاعي هذه العلاقة بقوله: «إسناد مجازي علاقته السببية»[(٤)].

٥- المصدريَّة:

وتذكر فيما بني للفاعل أو للمفعول وأسند إلى المصدر، كقوله تعالى: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ﴾ [يوسف: من الآية ١٨]، فهنا مبني للمفعول

---

(١) أولى ما قيل: ٥/١١٥.

(٢) المصدر نفسه: ٥/٤٩.

(٣) أنوار التنزيل: ٣/ ٣٥١.

(٤) نظم الدرر: ٤/ ١٩٠، وينظر: البحر المديد: ٣/٥٤٤.

ولكنه اسند إلى المصدر، قال رشيد: «والعرب تضع المصدر موضع الصفة للمبالغة في الوصف، وإنما قال على قميصه ليصور للقارئ والسامع أنه موضوع وضعاً مصنعاً»[1].

قال البقاعي: «بدم كذب»، أي: مكذوب، أطلق عليه المصدر مبالغة؛ لأنَّه غير مطابق للواقع، لأنَّهم ادعوا أنه دم يوسف عليه السلام والواقع أنه دم سخْلة ذبحوها ولطخوه بدمها...»[2].

وهذا ما نهج عليه أغلب المفسرين[3].

ب- المجاز اللغوي:

١- الاستعارة:

وهي **في اللغة:** مأخوذة من العارية أي: نقل الشيء من شخص إلى آخر حتى تصبح تلك العارية من خصائص المُعار إليه. والعَارية والعارة: ما تداولوه بينهم، وقد أعَارَ الشيء أعَارَهُ منه وعاورَهُ إياه. والمعاورة والتَّعاور شِبْه المَدَاوَلة والتَداول يكون بين اثنين. وتعور واستعار: طلب العَارية[4].

ويعد الجاحظ أول من عرفها بقوله: «الاستعارة تسمية الشيء باسم

---

(١) أولى ما قيل: ١٣/٥.

(٢) نظم الدرر: ١٧/٤.

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٢٥٠/٤، والمحرر الوجيز: ٢٣٩/٣، والتفسير الكبير: ٨٢/١٨، ولباب التأويل: ٢٦٩/٣، وأنوار التنزيل: ٢٧٨/٣، وبحر العلوم: ١٨٤/٢، والنكت والعيون: ٢١٥/٣، والسراج المنير: ٧٧/٢، واللباب في علوم الكتاب: ٤٠/١١، والبحر المديد: ٣٦١/٣، والتحرير والتنوير: ٣٦/١٢.

(٤) لسان العرب، مادة (عور).

غيره إذا قام مقامه»[1].

واهتم ابن قتيبة بالاستعارة اهتماماً كبيراً؛ إذ بدأ مباحث المجاز بها؛ لأنَّ أكثره يقع فيه، وقال فيها: «فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمّى بها بسبب من الأسباب الأخرى ومجاوراً لما أو مشاكلاً»[2].

وعرفها الجرجاني بقوله: «الاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء وتظهره وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه»[3].

واستقر تعريف الاستعارة عند السكاكي حين قال: «هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مُدَّعياً دخول المشبّه في جنس المشبّه به دالاً على ذلك بإثبات للمشبّه بما يخص المشبّه به»[4].

وهذا هو التعريف المشهور الذي سار عليه العلماء.

والاستعارة تتألف من ثلاثة أركان، وهذه الأركان هي: المستعار منه، وهي المشبه به والمستعار له وهو المشبّه والمستعار ويقصد به اللفظ المنقول.

وقد قسم الجرجاني الاستعارة على مفيدة وغير مفيدة[5].

ثم جاء القزويني والسكاكي وقسّما الاستعارة على أنواع متعددة سنتعرف عليها من خلال تناول رشيد الخطيب لها في تفسيره.

---

(١) البيان والتبيين: ١/١٥٣، ٢٨٤، والحيوان: ٢/٢٨٠-٢٨٣.

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص١٠٢.

(٣) دلائل الإعجاز، ص٥٣.

(٤) مفتاح العلوم، ص١٧٤.

(٥) ينظر: أسرار البلاغة، ص٢٢.

١- الاستعارة الأصلية:

وهي الاستعارة التي يكون فيها اللفظ المستعار اسماً جامداً غير مشتق وقد عرَّفها السكاكي فقال: «هي أن يكون المستعار اسم جنس كرجل وكقيام وقعود. ووجه كونها أصلية هو أن الاستعارة مبناها على تشبيه المستعار بالمستعار منه»[(١)].

ومنه مما جاء في قوله تعالى: ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: من الآية ١]، قال رشيد الخطيب: «بدعائك إياهم إلى ما تضمنه من البيان لسبل الرشاد وتنقذهم بذلك «من الظلمات» والضلال «إلى النور» والهدى، واستعارة الظلمات للضلال والنور للهدى من خصائص اللغة ومعروف في تعابير القرآن»[(٢)].

وقد فسر أغلب المفسرين الآية من دون ذكر لفظ الاستعارة، وقد ذكرها الشوكاني بقوله: «لتخرجهم من ظلمات الكفر والجهل والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والهداية ما جعل الكفر بمنزلة الظلمات والإيمان بمنزلة النور على طريق الاستعارة»[(٣)].

٢- الاستعارة بالكناية:

وتسمى المكني عنها أو المكنية وهي تشبيه حذف منه المشبه به وَكُنِيَّ عنه بشيء من لوازمه. وقد عرفها السكاكي فقال: «هي أن تذكر المشبّه وتريد المشبّه به دالاً على ذلك بنصب قرينة تنصبها وهي أن تنسب إليه وتضيف

---

(١) مفتاح العلوم، ص١٧٩.

(٢) أولى ما قيل: ٨١/٥.

(٣) فتح القدير: ١٣٢/٣.

شيئاً من لوازم المشبّه به المساوية»[1]، ومنه مما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: من الآية ١٥٤]، قال رشيد: «وقد استعار صفة الغضب للإشارة إلى أنه هو الذي كان يغريه بالكلام»[2].

قال الآلوسي: «وفي الكلام استعارة مكنية حيث شبه الغضب بشخص نآه آمر وأثبت له السكوت على فريق التخييل»[3]. واقتصر الرازي على ذكر لفظ الاستعارة فقط[4].

ويصرح رشيد الخطيب في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] بوجود استعارتين: مكنية وتمثيلية، فيقول: «ومن مباحث اللفظ أنه استعار المكان القوي، للتقوى استعارة مكنية، واستعار شفا جرف هار، للكفر والنفاق استعارة تمثيلية وعقد المشابهة بينهما»[5]. وتحليل الشيخ هنا ينبئ عن فهم دقيق للاستعارة، فالأولى حذف فيها المشبه به، وهو البناء الذي شبهت به التقوى، وترك شيء، من لوازمه وهو أسس البنيان والثانية تشبيه صورة النفاق بما فيه من تناقل وتذبذب -وهي صورة معقولة- بحال بناء قائم على شفا جُرُفٍ هارٍ - وهي صورة محسّة-، لما بينهما من وشيجة عدم الاستقرار. وتوقع الانهيار والسقوط، ثم

(١) مفتاح العلوم، ص١٧٩.
(٢) أولى ما قيل: ٥٥/٤.
(٣) روح المعاني: ٧١/٩.
(٤) ينظر: التفسير الكبير: ١٣/١٥.
(٥) أولى ما قيل: ١٦٩/٤.

حذف الصورة الأولى المشبه، وبقيت الثانية المشبه به[1].

ولم أجد من المفسرين من ذكر هذا التفسير، وذهب ابن عاشور إلى أنَّها استعارة تصريحية[2]، واقتصر ابن جزي بذكر الاستعارة فقط[3].

٣- الاستعارة التجريدية:

وهي الاستعارة التي يلتحق بها صفات تلائم المستعار له، وقال عنها السكاكي: «أي: أنَّها تكون تجريدية إذا عقبت بصفات ملائمة للمستعار له أو تفريع كلام ملائم له»[4].

ومثاله مما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: من الآية ١١٢]، حيث قال: «أذاقها» ولم يقل «كساها» فإن المراد بالإذاقة إصابتهم بما استعير له اللباس كأنَّه قال: فأصابها الله بلباس الجوع والخوف. وقال رشيد الخطيب: «وفي الكلام استعارة بديعية مزدوجة من صفات المطعوم والملبوس»[5].

قال الشوكاني: «وقد أجاب العلماء أن هذا من تجريد الاستعارة وذلك أنَّه استعار اللباس لما خشي الإنسان من بعض الحوادث كالجوع والخوف لاشتماله عليه اشتمال اللباس على اللابس ثم ذكر الوصف ملائماً للمستعار له وهو الجوع والخوف؛ لأنَّ إطلاق الذوق على إدراك الجوع والخوف جرى

---

(١) منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، ص٢٣٨.

(٢) التحرير والتنوير: ١٠/٢٠٦.

(٣) التسهيل: ١/٤٧٣.

(٤) مفتاح العلوم، ص١٨٢.

(٥) أولى ما قيل: ٥/١٥٣، وينظر: الإيضاح، ٢٨١.

عندهم مجرى الحقيقة فيقولون ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه غيره فكانت الاستعارة مجردة ولو قال فكساها كانت مرشحة»[1].

وذكر أبو السعود لفظ الاستعارة فقط[2].

٤- الاستعارة التصريحية:

وهي الاستعارة التي يحذف فيها المشبه وصرّح بالمشبّه به، وعرفها السكاكي فقال: «أنْ يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به»[3].

ومنه ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: من الآية ٤٦]، قال رشيد: «ويكون قد استعار الجبال لحجج القرآن القوية ودلائل النبوة الثابتة»[4] وهي استعارة تصريحية فقد شبه الحجج بالجبال، فحذف المشبه وأبقى المشبه به. وإن لم يُصرح رشيد بذلك واكتفى بذكر لفظ الاستعارة.

وفسر الزمخشري الآية من دون ذكر الاستعارة فقال: «وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة، فضرب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقمه وشدته، أي: وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال، معداً لذلك»[5].

وقال الرازي: «والمعنى: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال أي: وكان مكرهم أوهن من أن تزول منه الجبال الراسيات التي هي دين محمد ﷺ

---

(١) فتح القدير: ٣/٢٨٥.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: ٥/١٤٥.

(٣) مفتاح العلوم، ص١٧٦.

(٤) أولى ما قيل: ٥/٩٨.

(٥) الكشاف : ٢/٥٢٩.

ودلائل شريعته»[1].

وقال أبو حيان: «والذي يظهر أن زوال الجبال مجاز ضرب مثلاً لمكر قوي، وعظمة الجبال لا تزول، وهذا من باب الإيغال والمبالغة في ذم مكرهم»[2].

٥- الاستعارة التمثيلية:

عرفها السيوطي بقوله: «هي أن يكون وجه الشبه فيها منتزعاً من متعدد»[3]، ومثاله قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ [غافر: من الآية ٣٣]، قال رشيد: «ويجوز أن يكون الكلام استعارة تمثيلية من حالة الإبل النافرة من شدة الخوف. وتفرّ مدبرة، مثل به شدة خوفهم في موقف الحساب[4].

و لم يذكر أحد من المفسرين أن في الآية استعارة تمثيلية، وقد انفرد رشيد في هذا التفسير للآية الكريمة.

ومنه أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وإن لم يقطع بذلك فيقول: «يحتمل أن تكون هذه الآية عبارة عن دخول أهل الجنة، وأهل النار، وتلمح إلى ما يكون بينهم من عزلة تامة، إلا من ناحية خاصة وهي معرفة البعض بأحوال بعض، ومكالمتهم المحدودة التي كنّى عنها بالباب... فقد عقد المشابهة بين هذه العزلة إلا من وجه خاص وبين السور الذي له باب على طريقة الاستعارة

---

(١) التفسير الكبير : ١١٤/١٩.

(٢) البحر المحيط : ٤٢٦/٥.

(٣) معترك الأقران: ٢٨٣/١.

(٤) أولى ما قيل: ٢٤٤/٧.

التمثيلية هذا ما أراه والله أعلم»[1].

و لم أجد من المفسرين من ذكر الاستعارة في هذه الآية الكريمة.

٦- الاستعارة التهكمية:

وتسمى الاستعارة التلميحية، وهي استعمال الألفاظ الدالة على المدح في نقائضها من الذم والإهانة[2]. ومن الاستعارة التهكمية ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَخَافُ عُقْبَهَا ﴾ [الشمس: ١٥]، قال رشيد: «وهذه جملة تهكمية مستعارة من حال المخاطبين»[3].

و لم أجد من المفسرين من ذكر الاستعارة في هذه الآية الكريمة.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَرَتُهُمْ ﴾ [البقرة: من الآية ١٦]، قال رشيد: «صور ذلك بصور خسارة التجارة على طريقة الاستعارة التهكمية. وهي من البلاغة بمكان، والجملة ترشيح للشراء في الجملة التي قبلها، ثم مكن المعنى وجود الاستعارة بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: من الآية ١٦]»[4].

وذهب السيوطي إلى أن الاستعارة هي بالكناية قائلاً: «استعير الاشتراء للاستبدال ثم فرع عليهما بما يلائم الاشتراء من الربح والتجارة أو اضمر التشبيه في النفس فلم يصرح بشيء من أركانه سوى المشبه فبالكناية أي: فهو

---

(١) أولى ما قيل : ٢١٢/٨.

(٢) معجم المصطلحات البلاغية: ١٥٨/١.

(٣) أولى ما قيل: ٢٠٨/٩.

(٤) المصدر نفسه: ٢٠/١-٢١.

استعارة بالكناية»[1].

وقال البيضاوي: «ترشيح للمجاز لما استعمل الاشتراء في معاملتهم أتبعه بما يشاكله تمثيلاً لخسارتهم»[2] وهذا ما ذكره النسفي وابن جزي وابن عاشور[3].

٧- الاستعارة التخييلية:

هي أن يستعار لفظ دال على حقيقة خيالية تقدر في الوهم ثم تردف بذكر المستعار له إيضاحاً لها وتعريفاً لحالها. وقد سماها ابن الأثير الحلبي: «استعارة التخييل»[4] وسماها العلوي «الاستعارة الخيالية الوهمية»[5].

ومثالها ما جاء في قوله تعالى: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٥]، قال رشيد: «... ثم رشح هذا المجاز باستعارة تخييلية تناسبها، لزيادة التقرير والمبالغة في التشنيع فقال: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أي: في عنقها حبل قوي من ليف تجمع به حطباً كثيراً، لوقود نار الفساد، والفتنة والمشاغبات، يكنّى بذلك عن شدة بالمشاغبة ضد رسول الله ﷺ، وقد استعار هذا المعنى من المرأة المجدة في جمع الحطب لإيقاد النار، يبالغ في البيان عن شدّة سعيها في الفساد والمعارضة لنشر الدعوة وظهور الدين وكبت المسلمين»[6].

قال البيضاوي: «أي: من مسد أي: فتل ومنه رجل ممسود الخلق أي:

---

(١) إتمام الدراية لقراء النقاية، ص١٢٧.

(٢) أنوار التنزيل: ١٨٣/١.

(٣) ينظر: مدارك التنزيل: ٢١/١، والتسهيل: ٧٣/١، والتحرير والتنوير: ٢٩٦/١.

(٤) جوهر الكنز، ص٥٨، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ١٥١/١.

(٥) الطراز: ٢٣٢/١، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ١٥١/١.

(٦) أولى ما قيل: ٢٦٩/٩.

مجدوله وهو ترشيح للمجاز أو تصوير لها بصورة الحطّابة التي تحمل الحزمة وتربطها في جيدها تحقيراً لشأنها أو بياناً لحالها في نار جهنم حين يكون على ظهرها حزمة من حطب»[1].

ومن الاستعارة التخييلية ما جاء في قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة: ١٩]، قال رشيد: «استعارة تخييلية مبنية على تشبيههم في تغاضيهم عن قوارع هذا النور الساطع، بمن يسد آذانه من الصواعق حذر الموت حماقةً وبلهاً. فقد سيقت هذه الاستعارة لتصوير ناحيتين من نواحي نفوسهم، وبيان أمرين من أمورهم، فهي تصور شدة بلههم وحماقتهم، وتقرر إعراضهم عن الحق الجلي القوي وصممهم وتعاميهم عنه...»[2].

و لم أجد من المفسرين من قال بهذا الرأي.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: من الآية ١٤٨]، قال رشيد: «وقوله له خوار: استعارة تخييلية رشحت بها الاستعارة الأصلية ليتمكن في الذهن أن الصورة كانت متقنة الصنع فيرتاب الناظر إليها أنها عجل حقيقي من ذوات الخوار، لا صنعي»[3].

ويرى القزويني أنه من استعارة محسوس لمحسوس؛ إذ قال: «إنه استعارة محسوس لمحسوس بوجه حسي... فإن المستعار منه ولد البقرة والمستعار له

---

(١) أنوار التنزيل: ٥/٥٤٥.

(٢) أولى ما قيل: ١/٢٣.

(٣) المصدر نفسه: ٤/٥٣.

الحيوان الذي خلقه الله تعالى من حلي القبط التي سبكتها نار السامري»[1].

وقد أكثر رشيد الخطيب من ذكر مواطن الاستعارة في تفسيره وكان الغالب على ذلك أنه لا يُبين نوعها[2].

٢- المجاز المرسل:

وهو أحد أنواع المجاز اللغوي، وعرفه القزويني قائلاً: «هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير التشبيه»[3]. وسمي مرسلاً، لأنَّ الإرسال في اللغة والإطلاق، والمجاز الاستعاري مقيَّد بادعاء أنَّ المشبه من جنس المشبه به، والمرسل مطلق ومحرر من هذا القيد. وقيل: «إنما سمي مرسلاً لإرساله على التقييد بعلاقة هي المشابهة»[4]. وأول من أطلق التسمية هو السكاكي؛ إذ قال: «وغير معناها -أي: الكلمة- إما أن يقدر قائماً مقام معناها بواسطة المبالغة في التشبيه أو لا يقدر والأول هو (الاستعارة) والثاني هو (المجاز المرسل)»[5].

❑ المجاز المرسل عند رشيد الخطيب:

ذكر رشيد الخطيب المجاز المرسل بالتحليل والدراسة وبين فائدته، ومن أنواع المجاز المرسل التي ذكرها في تفسيره.

---

(١) الإيضاح، ص٢٧٦، وينظر: مختصر المعاني، ص٢١٧، وبغية الإيضاح، ص٣٣٠.

(٢) ينظر: على سبيل التمثيل لا الحصر: أولى ما قيل: ٢٦/٤، ١٠١/٤، ١٦٨/٥، ١٧٦/٥، ١٦/٦، ٢٧/٦، ٣٠/٦، ١١٦/٩، ١٥١/٩.

(٣) الإيضاح، ص٢٥٤، التلخيص، ص٢٩٥.

(٤) حاشية الدسوقي: ٢٩/٤.

(٥) مفتاح العلوم، ص١٩٥.

١- إطلاق اسم الكل على الجزء:

نحو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ [التوبة: من الآية ٨٦]، قال رشيد: «والمراد من السورة آيات في موضوع خاص في السورة من ذكر الكل وإرادة الجزء»(١).

ولم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا القول، سوى الإمام الزمخشري الذي قال: «يجوز أن يراد السورة بتمامها، وأن يراد بعضها»(٢).

٢- إطلاق اسم الجزء على الكل:

ومنه مما جاء في قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ [الشعراء: من الآية ٤]، قال رشيد ذاكراً قول الرازي: «قال الرازي: فإن قيل كيف صح مجيء خاضعين خبراً على الأعناق، قلنا أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فذكرت الأعناق لبيان موضع الخضوع زيادة في التقرير، ثم ترك الكلام على أصله، يريدان في الكلام مجازاً مرسلاً من ذكر الجزء وإرادة الكل، كما في عتق الرقاب»(٣).

قال أبو السعود: «وأصله فظلوا لها خاضعين فاقتحمت الأعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله»(٤). وهذا قول الخازن والشوكاني(٥).

---

(١) أولى ما قيل: ١٥٩/٤.

(٢) الكشاف: ٢٨٥/٢.

(٣) أولى ما قيل: ٢٢٠/٦، وينظر: التفسير الكبير: ١٠٣/٢٤.

(٤) إرشاد العقل السليم: ٢٣٤/٦.

(٥) ينظر: لباب التأويل: ١١٣/٥، وفتح القدير: ١٣٦/٤.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ [النازعات: ٨-٩]، قال رشيد في تفسيره للآية: «ومعنى الخشوع الذلة والاستكانة من شدة الخوف. وقد أعاد الضمير للقلوب فأضاف إليها الأبصار، لما بينهما من ملابسة الاجتماع في جسم واحد. والإضافة تصح في أدنى ملابسة. ويجوز أن يكون إعادة الضمير إليها، باعتبار أصحابها، على طريقة المجاز المرسل من ذكر الجزء وإرادة الكل فأضاف إليها الأبصار؛ لأنَّها جزء من الأصحاب»[1].

وهذا من انفرادات رشيد في تفسير الآية.

٣- إطلاق المسبب على السبب:

ومنه مما جاء في قوله تعالى: ﴿تَنْحِتُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: من الآية ٧٤]، قال رشيد الخطيب في تفسير الآية: «﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بتبديل الشكر بالكفر. وعثى بمعنى أفسد. فالآية تذكرهم بما أنعم الله عليهم من الحضارة والعمران والقوة والبأس والعلم والصناعة، ولاسيما في فن الهندسة والبناء، وتدعوهم إلى شكر الله على هذه النعم. ويجوز أن يراد من نحت الجبال تعبيد الطرق فيها ليتهيأ البناء والسكن عليها. أو المراد نحت الصخر منها لبناء البيوت. وفيه ذكر المسبب وإرادة السبب أو ذكر المحل وإرادة الحال»[2].

و لم يقل أحد من المفسرين هذا الرأي.

---

(١) أولى ما قيل: ٩/١٤٨.

(٢) المصدر نفسه: ٤/٣٤.

٤- إطلاق السبب على المسبب:

نحو قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا﴾ [التوبة: من الآية ١١٠]، قال رشيد الخطيب: «ذكر البنيان وأراد سببه بطريقة المجاز المرسل أي: سبب بنيانهم يبقى لها قابلية الإدراك: يبين بذلك أن نفاقهم وكفرهم راسخ فيهم لا يمكن تحويلهم عنه فسيموتون وهم كفار...»[(١)].

ولم أجد من المفسرين من ذكر أن في الآية مجازاً مرسلاً. بل اكتفوا بقول أنَّ هذا البنيان سبباً لحصول الريبة في قلوبهم[(٢)] ومنه أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: من الآية ٢]، قال رشيد: «والقدم مصدر بمعنى المسابقة استعمل هنا وصفاً مضافاً إليه موصوفه، وذلك من خصائص اللغة. ويجوز أن يُراد بالقدم قدم الرجل ذكر وأُريد به السبق في العمل أو القدوم على الله، من ذكر السبب وإرادة المسبب كإطلاق اليد على النعمة»[(٣)].

ونقل النحاس عن ابن عباس قوله: «أي: منزل صدق: وقيل القدم العمل الصالح وقيل السابقة...»[(٤)].

---

(١) أولى ما قيل: ١٦٩/٤.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ٩٧/٣، والتفسير الكبير: ١٥٧/١٦، والبحر المحيط: ١٠٥/٥، ولباب التأويل: ١٥٠/٣، والسراج المنير: ٥١٤/١، واللباب في علوم الكتاب: ٢١٣/١٠.

(٣) أولى ما قيل: ١٧٩/٤.

(٤) معاني القرآن: ٢٧٦/٣.

٥- إطلاق المحل على الحال:

ويقصد البلاغيون النسبة إلى المحل، أي: المكان. والمجاز في هذه العلاقة أنَّهم يستعملون اللفظ الدال على المكان، وهم يريدون غير المكان، فتتجاوز إرادتهم المكان إلى من فيه أو ما فيه[١].

ومثاله مما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، قال رشيد: «أي: وأُوحي إليّ أن العبادة خاصة بالله تعالى ففيه مجاز مرسل من ذكر المحل وإرادة الحال»[٢].

و لم أجد من المفسرين من ذكر هذا الرأي.

٦- تسمية الشيء باسم آلته:

والمقصود من هذه العلاقة كون الشيء، واسطة في التأثير عليه يتوقف التأثير والتأثر، إذ به يعالج المؤثر، ومثاله أنْ يذكر اسم ويراد به الأثر الذي يتكون منه، وبذلك يستعمل اللفظ الدال على آلته الشيء مكان الشيء نفسه[٣].

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: من الآية ١٢]، قال رشيد: «وخص البنان بالذكر مراداً به الأصابع ثم الأكف بطريقة المجاز المرسل، لأنَّها أداة التصرف في الضرب»[٤].

و لم أجد من المفسرين من قال أن في الآية مجاز مرسل.

---

(١) صناعة الكتاب، ص٣٣٤.

(٢) أولى ما قيل: ١٠٦/٩.

(٣) ينظر: صناعة الكتاب، ص٢٠١.

(٤) أولى ما قيل: ٨٦/٤.

٧- إطلاق الملزوم على اللازم:

نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنفال: من الآية ٧٠]، قال رشيد: «وإنَّما قال: إن يعلم الله، بدل أن يكن في قلوبكم خير، لأنَّ الذي يكون، يعلمه الله. فهو تعبير عن الملزوم باللازم»[(١)].

و لم أجد أحداً من المفسرين من قال بالمجاز المرسل في هذه الآية.

❑ مجاز التضمين:

وقد عرفه ابن عبد السلام قائلاً: «هو أن تضمن اسماً معنى اسم لإفادة معنى الاسمين فتعديه تعديته في بعض المواطن»[(٢)]، وقد عرفها رشيد الخطيب بقوله: «مجاز التضمين وهو أن يضمن الكلمة معنى كلمة أخرى فيعديها تعديتها»[(٣)].

ومن الأمثلة التي ذكرها رشيد لهذا النوع من المجاز قوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ [الحجرات: من الآية ٦]، فقال: «فقد ضمن تبينوا معنى تحذروا، فتكون الكلمة محتملة للمعنيين التبيين والتحذير»[(٤)].

و لم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا القول.

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ﴾ [الإسراء: من الآية ٧٣]، قال رشيد: «فقد ضمن

---

(١) المصدر نفسه: ٤/١١٤.

(٢) الإشارة إلى الإيجاز، ص٧٤، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٣/٢١٠.

(٣) أولى ما قيل، ص٢٠١ من المقدمة.

(٤) المصدر نفسه.

فيفتنوك معنى ليصرفوك فأفادت المعنيين معاً»[1].

لم أجد من المفسرين من قال بهذا القول.

❑ مجاز التشبيه:

هو التشبيه المحذوف الأداة، وقد أوضح عز الدين بن عبد السلام ذلك بقوله: «العرب إذا شبهوا جرماً بجرم أو معنى بمعنى أو معنى بجرم فإن أتوا بأداة التشبيه كان ذلك تشبيهاً حقيقياً وإن أسقطوا أداة التشبيه كان ذلك تشبيهاً مجازياً»[2].

ومن قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ [طه: من الآية ٨٨]، قال رشيد: «وعندي أن الآية من مجاز تشبيه الأجسام بالأجسام، كقولك لما نحت على صورة الفرس أنه فرس صهال مبالغة في إتقان صنعها»[3].

و لم أجد من المفسرين من ذكر هذا القول.

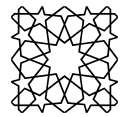

(١) المصدر السابق، وقد ذكر الشيخ في الصفحة نفسها أمثلة متعددة من هذا المجاز.

(٢) الإشارة إلى الإيجاز، ص٨٥، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٣/٢١٠.

(٣) أولى ما قيل: ٦/٧٢.

المبحث الثالث

الكناية والتعريض

أولاً: الكناية

جاء في اللسان: **الكناية**: «أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنَّى عن الأمر بغيره يكنى كناية، وتكنَّى: تستر من كَنى عنه إذا روى، أو من الكنية»[1].

وفي في اصطلاح البلاغيين: لفظ أطلق وأريد به لازم معناه الحقيقي مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الأصلي مع المعنى المراد[2].

ولعل أقدم من تكلم عن الكناية أبو عبيدة (ت٢١٠هـ) في قوله: «ومن مجاز ما يحول خبره إلى شيء من سببه ويترك خبره، هو قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: من الآية ٤] حول الخبر إلى كناية التي في أصل الأعناق»[3].

وقد كانت لدراسة قدامة (٣٣٧هـ) لمصطلح الكناية من أهم الدراسات التي انتقلت بالكناية من المفهوم اللغوي إلى المصطلح البلاغي، فهو أول من عرَّفها باسم (الإرداف) وذلك في دراسته لأنواع ائتلاف اللفظ والمعنى، فيقول: «ومن أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى والإرداف، وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل يدل على معنى هو ردفه وتابع له فإذا دل على التابع أبان على المتبوع»[4]، وكان هذا

---

(١) لسان العرب، مادة (كنى).

(٢) ينظر: عروس الأفراح ، ص٢٣٧.

(٣) مجاز القرآن: ١٢/١.

(٤) نقد الشعر ، ص١٥٥.

أول تعريف اصطلاحي عرف به قدامة الإرداف.

وقال أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) عن الكناية: «وهو أن تكنى عن الشيء وتعرض به ولا تصرح على حساب ما عملوا في اللحن والتورية عن الشيء، كما فعل العنبري إذ بعث إلى قومه بِصرّة شوك وصرّة رمل، وحنظلة يريد جاءتكم بنو حنظلة في عدد كثير ككثرة الرمل والشوك»[1].

ودرس ابن رشيق القيرواني (٤٦٣هـ) أسلوب الكناية فهو يشير إليها في أبواب متفرقة؛ إذ تحدث عنها في باب (المجاز) بقوله: «وكذلك الكناية في مثل قوله تعالى إخباراً عن عيسى ومريم -عليهما السلام-: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: من الآية ٧٥] كناية عما يكون عنه في حاجة الإنسان»[2]، ثم هو يذكرها في باب (الإشارة) أيضاً الذي يشمل على أنواع عدة منها (الإيماء، التفخيم، التعريض، الكناية والتلويح، التمثيل، الرمز، اللمحة، الحذف... الخ).

أما عبد القاهر الجرجاني فقد نهج في تعريفه للكناية نهج قدامة وهو تعريفها بالإرداف؛ إذ يقول: «الكناية أنْ يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ويجعله دليلاً عليه»[3].

وقد تميز تفسير أولى ما قيل بكثرة الكنايات الواردة فيه، فقد أفاد رشيد منها كثيراً في تفسير الآيات، وكان غالباً ما يبين وجه التجوز فيها، وهو يرى

---

(١) كتاب الصناعتين، ص٣٦٠.

(٢) العمدة: ١٦٨/١.

(٣) دلائل الإعجاز، ص٥٢.

أنَّ الكناية لا يشترط فيها صحة إرادة المعنى الحقيقي على نحو ما أورده في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: من الآية ١٠٨]، حيث قال: «وهذه العبارة تستعملها العرب كناية عن الدوام الدائم، فجرى القرآن في التعبير على حسب عرف التخاطب، على نهجه في مثل ذلك، ولا يشترط في الكناية صحة المعنى الحقيقي ويجوز أن يراد سماء كل من أهل النار وأهل الجنة، وذلك ما فوقهم وما يستقرون عليه»[(١)].

وما ذكره رشيد هنا هو الفرق بين الكناية والمجاز الذي ليس كناية، لأنَّ المجاز يمتنع فيه إرادة المعنى الحقيقي[(٢)] وبعض الكنايات لا يمكن أن نحملها على المعنى الحقيقي، ومع ذلك فإنَّ من الباحثين من لا يدخلها في المجاز، والشيخ رشيد منهم.

ويؤكد رشيد على ما ذكره من شروط الكناية، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، قال رشيد: «قيل هي كناية عن شدة الغضب، مثل حمي الوطيس، وقيل كناية عن قوة انبعاث الماء، لأنَّ التنور يطلق على كوة عين الماء، ولا يشترط في الكناية صحة إرادة المعنى الحقيقي كما لا يمتنع، وعليه فيجوز أن تكون الطبيعة أثارت ينابيع أرسلت ذلك الماء، اتفاق أقدار لأقدار والله أعلم. وعلى كل يكون المعنى فإذا اشتد طغيان الماء»[(٣)].

---

(١) أولى ما قيل: ٢٥٨/٤.

(٢) ينظر: الإيضاح، ص٣٠١.

(٣) أولى ما قيل: ١٥٢/٦.

ويستمر رشيد على تأكيده لشروط الكناية في قوله تعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: من الآية ٧٦]، فقال: «وهذا تصوير لكثرة خزائنه البالغة الحد، وكناية عن ذلك، والكناية يراد بها لازم معناها، وهو هنا كثرة الخزائن ولا يجب فيها تحقق المعنى الأصلي بل لا يتحقق إلا في القليل من الكنايات»(١).

وقد وردت الكناية في تفسير رشيد الخطيب في مواضع كثيرة ودلَّ عليها وكان غالباً ما يذكر الأغراض البلاغية التي جاءت فيها، ومنها:

❑ الكناية لغرض الاستكبار:

نحو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣]، قال رشيد: «وهذا كناية عن الاستكبار والازدراء للنعمة وكفرانها، ومنها نعمة القرآن»(٢).

وذكر ابن عاشور معنى الكناية قائلاً: «وهو هنا مجاز في عدم الإيتاء أو كناية عنه؛ لأنَّ الإمساك يلازمه الإعراض»(٣).

واقتصر الزمخشري والثعلبي والقزويني على ذكر معنى الاستكبار فقط(٤).

❑ الكناية لغرض الاستيلاء والتدبير:

نحو قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، قال رشيد

---

(١) المصدر نفسه: ٧/٧٤.

(٢) أولى ما قيل: ٥/١٩١.

(٣) التحرير والتنوير: ١٤/٦٤.

(٤) ينظر: الكشاف: ٢/٦٤٤، والكشف والبيان: ٦/٦٢٩، والإيضاح، ص٨٩.

الخطيب: «وفي هذا كناية عن الاستيلاء والتدبير لهذا الكون والسيطرة عليه، على عادة المخاطبين ونظامهم في أحوال سلطانهم. لأنَّه سبحانه يخاطب الناس في تعريف ذاته بما اعتادوا أن يعرفوه في ملوكهم وعظمائهم...»[1].

وذهب الزركشي: «أنَّه كناية عن الملك؛ لأنَّ الاستواء على السرير لا يحصل إلا مع الملك فجعلوه كناية عنه»[2] وتبعه السيوطي في ذلك[3].

❑ الكناية عن منتهى السخاء:

نحو قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، قال رشيد: «كناية عن منتهى السخاء مأخوذ من حال المخاطبين... لأنَّ السخي يعطي بيده لكثرة السائلين»[4].

وذكر الزركشي أنَّه «كناية عن سعة جوده وكرمه»[5]، وقال السيوطي ذلك[6].

وقد تفرد رشيد بذكر الكناية في مجموعة من الآيات القرآنية، وهذا إن دل على شيء فهو للدلالة على مقدرته البلاغية واستقلال شخصيته العلمية، وهذه الآيات هي:

---

(١) أولى ما قيل: ٥٦/٦.

(٢) البرهان: ٥٠٦.

(٣) ينظر: الإتقان: ١٢٤/٤.

(٤) أولى ما قيل: ٤٦/٣.

(٥) البرهان، ص٥٠٥.

(٦) ينظر: الإتقان: ١٢٣/٣.

❑ الكناية عن العذاب:

نحو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: من الآية ١٤٠]، قال رشيد الخطيب: «فيعبر عن مصيرهم الأليم بعدم المحبة لهم، إيماء لمحبة الله تعالى للمؤمنين وكناية عمّا لهم من العذاب في مقابلة نعيم المؤمنين ومحبتهم»[١].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: من الآية ٣٧]، قال رشيد الخطيب: «وهذه الجملة كناية عن العذاب الذي لا نجاة لهم منه»[٢].

❑ الكناية عن مواصلة السير:

نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [الحجر: من الآية ٦٥]، قال رشيد الخطيب: «كناية عن مواصلة السير السريع، وتهويل للعذاب الواقع أي: أسرعوا»[٣].

❑ الكناية عن الجزاء:

نحو قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: من الآية ١٩]، قال رشيد الخطيب: «وهذا كناية عن أنَّه تعالى يجازيهم عليه الجزاء الأوفى، فينالون ثمرة أعمالهم موفورة»[٤].

---

(١) أولى ما قيل، ص١٦٨ من المقدمة.

(٢) المصدر نفسه: ١٣١/٥.

(٣) أولى ما قيل: ١١٣/٥.

(٤) المصدر نفسه : ١٦٦/٥.

❑ الكناية عن الخير والسعادة:

ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الإسراء: من الآية ٧١]، قال رشيد الخطيب: «وأخذه باليمن كناية عن أنَّه حاوٍ لأعمال الخير ومستوجب للسعادة والهناء»[(١)].

❑ الكناية عن قبح الحال:

نحو قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، قال رشيد الخطيب: «وهذا دعاء على الإنسان بأشد عبارات النقد والتنديد، على ما هو معروف باللسان العربي. وهو كناية عن قبح حاله، وأنَّه قد بلغ منه مبلغاً لا يستحق معه أن يبقى حياً، ومنشأ الشناعة ومناطها نسيانه لما يتقلب فيه من النعم، وذهوله عن مسديها. فإذا ذُكِّر به أعرض عن الذكرى. فما أشد كفره بإحسان من غمره بنعمه من مبدأ إيجاده إلى ساعة معاده»[(٢)].

❑ الكناية عن الأناة والحلم والثبات:

نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]، قال رشيد: «وشرح الصدر كناية عن الأناة والحلم والثبات تجاه ما سيلقاه من الأمور المزعجة»[(٣)].

❑ الكناية عن عدم صدور اللغو:

نحو قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [مريم: من الآية ٦٢]، قال رشيد

---

(١) المصدر السابق: ١٨٦/٥.

(٢) المصدر السابق: ١٥٥/٩، وينظر: ١٧٩/٩.

(٣) أولى ما قيل: ٦٠/٦.

الخطيب: «أي: فضول الكلام. وهذه الكناية عن عدم صدور اللغو عن أهلها»[1].

❑ الكناية عن الإرادة:

نحو قوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: من الآية ٨٣]، قال رشيد الخطيب: «أي: معلمة بعلامة خاصة عند ربك، وهذه كناية عن أنَّ كل حجر منها لا يصيب إلا من أراد الله أن تصيبه والله أعلم. والمراد المبالغة في تمكين الإجراء وتحقيق الجزاء»[2].

❑ الكناية عن اللين والشفقة:

ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، قال رشيد الخطيب: «وخفض الجناح كناية عن الشفقة واللين والتواضع لهم، مستعار من حال الطائر، فإنَّه إذا أراد أن يحط خفض جناحه»[3].

❑ الكناية عن الهجوم:

نحو قوله تعالى: ﴿فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا﴾ [العاديات: ٥]، قال رشيد الخطيب: «أي: أدخلنا الغبار وسط جمع العدو، وهو كناية عن هجومهن عليهم، واختلاطهن بهم عند غلبتهم»[4].

---

(١) المصدر نفسه: ٤٨/٦.

(٢) المصدر نفسه: ٢٥٢/٤.

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٣/٦.

(٤) أولى ما قيل: ٢٣٨/٩.

❑ الكناية عن التيئيس:

نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: من الآية ٨٦]، قال رشيد الخطيب: «وقوله: «ولا هم ينصرون» كناية عن التيئيس من النجاة»[١].

❑ الكناية عن سعة العلم:

ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [مريم: من الآية ٦٤]، قال رشيد: «وهذه الجملة كناية عن سعة علم الله وسلطانه، وتلميح إلى ما يصحب ذلك من دقة عدله في جزائه وإكرامه للمحسنين، وتنزيل كل واحد منزلته لعلمه بما يستحقه ويقتضيه»[٢].

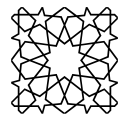

(١) المصدر نفسه ، (رسالة) مخطوط الجزء الأول، ص١٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ٤٨/٦.

المبحث الرابع

الصورة

أشار رشيد في تفسيره إلى ظاهرة جديرة بأن تُذكر في هذا المقام، وهي أنَّه اهتم بذكر ما يسميه (الصورة)، و(التصوير)، و(اللوحة)، فقد أشار في مقدمة تفسيره إلى التصوير في القرآن وفائدته وجماله قائلاً: «ومن سُنن القرآن تصوير المعنى وتثبيته بصورة الحكاية والمحاورة، أو بصورة التمثيل، أما في ذلك من قوة من قوة البيان، والتأثير في النفوس. كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: من الآية ٣٠] الآيات. فإنها -والله أعلم- حكاية لما دار في خلد الملائكة من كون هذا المخلوق مستعداً للإفساد، لأنَّه مختار التصرف تابع لإرادته. فأعلمهم سبحانه أنَّ الحكمة التي اقتضت ذلك ليكون وافر العلم صالحاً للاستفادة من مواهب الأرض وتعميرها»[1]. وتأثره بصاحب التصوير الفني في القرآن واضح؛ إذ يقول في تعريف التمثيل والتصوير: «فالتمثيل والتصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن. فهو يعبر بالصور المحسوسة أو المتخيلة عن المعاني الذهنية والحالات النفسية والأحوال الغيبية والطبائع البشرية»[2].

وفرق رشيد بين (التصوير) و(التمثيل)، فالتصوير عام، وهو رسم صورة ما، أما التمثيل فخاص بما لم يحدث، وإنما يشخص فيه المعنى أو يجسد، فذكر في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٥]، «وهذا

---

(١) أولى ما قيل، ص٤٦ من المقدمة.

(٢) وينظر: المصدر نفسه، المقدمة : ص٤٦ ، وينظر: نظرية التصوير الفني، ص٢٩.

تصوير لما كان يحاوله بعض الكفار والمنافقين عند سماع القرآن من الاستخفاء منه والإعراض عنه وثني الصدر... أو مجرد تمثيل لحالهم»[1].

ويستمر رشيد الخطيب بذكر سنن القرآن في التصوير قائلاً: «ومن سنن القرآن تصوير الأمر المحقق بالظاهر المرئي، فيستعير له الرؤية؛ لأنَّها أقوى سند الإخبار فيقول: ألم تر كيف كذا؟»[2].

غير إنَّ رشيد الخطيب يحمل أحياناً بعض النصوص على معنى التصوير فقط، مثل قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [الملك: ٧]، فقال: «صور هذه النار بصورة مخلوق رهيب عابس مكفهر الوجه يغلي صدره حقداً وغيظاً على فريسته»[3].

ويحمل بعض الآيات على معنى التمثيل، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: الآية ٣٢]، قال رشيد: «فهو مجرد تمثيل لحال الكافر والمؤمن»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، نجد إن رشيد يذكر لنا تعريف (المثل) وهو نوع من (التمثيل) قائلاً: «إذاً فالمثل تصوير المعاني المعقولة بصورة المحسوسات فيدنيها من الحس ويقربها للفهم، فيلمسها السامع لمساً»[5].

---

(١) أولى ما قيل: ٢٢٣/٤.

(٢) المصدر نفسه ، ص٤٦ من المقدمة.

(٣) أولى ما قيل: ٦٩/٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٤٦ من المقدمة.

(٥) المصدر نفسه: ٩٠/٥.

فضلاً عن أنَّه أشار إلى (اللوحة) وذلك ما ذكره في سورة الفجر إلى أنَّه سبحانه: «عرض بذلك لوحة لشقاء المكذبين من جبابرة أهل الوبر، ثم لجبابرة أهل الحضر. ثم للعريقين في المدينة»[1] وهو يعني بذلك قوم عاد وقوم ثمود وقوم فرعون.

على إنَّه ليس بالوسع القول أنَّ الشيخ قد عرف الصورة الفنية كما ينبغي فطبقها بدقة في تفسيره، بل الذي يمكن قوله أنه حاول محاولة حسنة قصد فيها إلى أن يفيد مما وصل إليه وأدراكه منها، وهو مما استقاه من كتاب (التصوير الفني) ومن تفسير (في ظلال القرآن) أو لَمَحَهُ هو أيضاً في ضوء ما انتهى إليه من تراث تفسيري ضخم، اطلع على كثير منه[2].

❑ ثانياً: التعريض:

وهو **في اللغة**: «عرَّض لفلان وبه: إذا قال فيه قولاً وهو يعيبه، يقال: عرَّض تعريضاً: إذا لم يبيّن، والتعريض خلاف التصريح، والمعاريض: التورية بالشيء عن الشيء»[3].

وفي **الاصطلاح**: استخدم العرب في كلامهم كثيراً من التعريض، فهو من الأساليب العريقة، إذ عدوه من محاسن الكلام، فقد عقد ابن قتيبة باباً خاصاً له مع الكناية سماه (باب الكناية والتعريض) وقال فيه: «ومن هذا الباب التعريض، والعرب تستعمله في كلامها كثيراً فتبلغ إرادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح، ويعيبون الرجل إذا كان يكاشف في

---

(١) المصدر نفسه: ١٩٣/٩.

(٢) ينظر: منهج رشيد الخطيب الموصلي في تفسير القرآن الكريم، ص٢٤٤.

(٣) لسان العرب، مادة (عرض)، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٢٧٦/٢.

كل شيء ويقولون: لا يحسن التعريض إلا ثلباً»[1]. وقد ذكره السكاكي وهو يقسم الكناية بقوله: «ثم إنَّ الكناية تتفاوت إلى تعريض، وتلويح، ورمز، وإيماء، وإشارة»[2]، ثم قال: «متى كانت الكناية عرضية كان إطلاق اسم التعريض عليها مناسباً»[3]، وعرفها ابن الأثير قائلاً: «هي اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي»[4].

وقد تناول رشيد الخطيب التعريض في عدد من الآيات كقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: من الآية ١٥-١٦]، قال رشيد: «ثم ختم الكلام بعبارة تدل بطريقة لتعريض على التوعد لمن يكفر بها»[5].

و لم أجد من المفسرين من ذكر هذا القول.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: من الآية ١٤]، قال رشيد: «وفي ذلك تعريض بمن اتخذ أولياء من دونه من البشر المحتاجين للطعام، والعاجزين عن الخلق والإيجاد، فكيف يكونون آلهة»[6].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: من الآية ٦٩]، قال رشيد: «وفي هذا تعريض وتحذير لهم مما وقع

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ص٢٠٤.

(٢) مفتاح العلوم، ص١٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٩.

(٤) المثل السائر: ٥٦/٣.

(٥) أولى ما قيل: ٥٩/٦.

(٦) أولى ما قيل: ٨٣/٣.

لقوم نوح من العذاب وإيماء إليه»[1].

و لم أجد من المفسرين من ذهب إلى هذا الرأي.

وقد ذكر رشيد التعريض في مواضع متعددة من تفسيره[2].

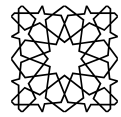

(١) المصدر نفسه: ٣٢/٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ٢٣/٤، ١٥٧/٦، ١٩٤/٦، ٢٤٨/٦.